بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: 8

المبحث: سورة الإنسان
كتبه: عبدالله ضيف الستري

الدرس: تفسير القرآن الكريم
التاريخ: 15\11\2022 م

بعد أن وقفنا عند محطات متعددة فيما يرتبط بمفردات الآية الأولى، يصل الكلام إلى بيان المقصود الإجمالي من تمام هذه الآية المباركة.

هذه الآية المباركة تعطي للمخاطب والسامع التفاتات ثلاث:

الالتفاتة الأولى: التفاتة إلى أصله. الالتفاتة الثانية: التفاتة إلى حاضره. والالتفاتة الثالثة: التفاتة إلى مستقبله. وهناك ترابط وثيق بين هذه الالتفاتات الثلاث.

الآية عندما تتحدث عن مخلوق اسمه الإنسان ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ وتحدثت عنه بصيغة الاستفهام الذي يراد منه التقرير والاعتراف، فتكون بمثابة المنبه له أن أصلك أيها الإنسان لم تكن شيئاً مذكوراً بالمعنى الذي قسرنا به هذا المقطع.

عندما يلتفت الإنسان إلى حقيقته وإلى ارتباطه بمن جعله شيئاً مذكوراً، لا محالة هذا سوف ينعكس عليه كإنسان عندما يصبح مذكوراً.

فتأتي الالتفاتة إلى حاضره، وما يقتضي ذلك الإقرار والمعرفة الاعترافية بحقيقة أصله، عندما تأتي هذه الالتفاتة الثانية لا محالة هذا الإنسان العاقل لا يكون من الذين ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَّ أَمَامَهُ﴾¹ فيلتفت أيضاً إلى مستقبله، وأنه مخلوق لدار غير هذه الدار.

فإذا المعنى الإجمالي لهذه الآية المباركة: أنك أيها الإنسان مضى عليك حين من الزمان قل أو كثر لم تكن فيه شيئاً مذكوراً، والآن أصبحت شيئاً مذكوراً. إذاً هذه نعمة أن أخرجنا من ظلمات الإغفال

وعدم الذكر إلى نور الذكر والمعرفة. هذه نعمة وهي نعمة تقتضي المسؤولية، بعد ما التفت إلى أصلي، فلا بد أن ينعكس ذلك على حركاتي وسكناتي وعلى حاضري، ويؤثر ذلك لا محالة على مستقبلي. وبهذا يتم الحديث في الآية الأولى.

الآية الثانية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاحٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

نقف عند هذه الآية المباركة وقفات:

الوقفة الأولى: في الربط السياقي بين هذه الآية والآية السابقة².

لا شك ولا ريب أن هذه الآية الثانية ما زالت تتحدث عن السياق ذاته. عندما أثبتنا في البحوث السابقة أن المقصود من الإنسان في كلا الآيتين -الآية الأولى والآية الثانية- هو جنس الإنسان، وليس شخصاً معيناً بعينه. خلافاً لمشهور العامة من الإنسان خصوص آدم والمقصود من الإنسان الثاني أولاد آدم. فأثبتنا بشواهد متعددة أن الإنسان في كلا الآيتين واحد ويقصد منه جنس الإنسان وطبيعة الإنسان.

فطبيعة الإنسان ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ بلا فرق بين الإنسان الأول وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين الإنسان الذي هو في يومنا هذا.

وهذا الإنسان بطبعه الباري تبارك وتعالى أوجد طريقاً متعارفاً لإخراجه من كتم العدم إلى نور الوجود، وبهذا الطريق يصدق عليه الخلق.

فإذاً الحديث ما زال عن نعمة واحدة، نعمة الإخراج من مكان إلى مكان آخر إن صح التعبير، نعمة تطوير هذا الإنسان بعد أن كان عدماً خلق، بعد أن ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ صار شيئاً مذكوراً. فما زال السياق سياق واحد، سياق التدليل على نعمة الله سبحانه وتعالى.

² وهذا كما تلاحظون نركز عليه، ونعتبره من الأمور المهمة التي ينبغي أن نطلع عليها، وهي الترابط السياقي بين الآيات، وفي بعض الأحيان بين المقاطع.

وهذا قد تكرر في القرآن الكريم في كثير من الآيات، في سورة في الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾³ وفي سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ...﴾⁴ وفي سورة الحج كذلك⁵.

إلا أنه في هذه السورة التي نبحت عنها جاء الكلام مجملاً ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ كل هذا التطور من نطفة إلى علقة ثم إلى عظام ثم كسونا العظام لحماً إلى أن صار مخلوقاً كاملاً، كل هذه المراحل طواها وجاء إلى مسألة الابتلاء.

وهذا يؤكد الالتفاتة الثانية والثالثة في الآية الأولى، هذه النعمة تقتضي مسؤولية، هذا الخلق لم يكن خلقاً عبثياً، بل له غاية وله هدف. إذاً السياق ما زال سياقاً واحداً متلائماً متناسباً.

الوقف الثانية: في وجه التأكيد في الآية.

نلاحظ أن الآية ابتدأت بأداة تأكيد ﴿إِنَّا خَلَقْنَا﴾ وإن من أدوات التأكيد. ولأجل ذلك قد يقال: إن هذا الخبر الذي تفيده الآية لا يخلو إما أننا نعلم به وإما أننا نجهل به، إن كنا من الجاهلين به لا نحتاج إلى تأكيد؛ بما ثبت في علوم البلاغة أن الخبر الابتدائي لا يؤكد، كما لو كنت خالي الذهن عن مطلب ودخل شخص الدار وقال إن السماء تمطر، فلا داعي أن يأتي بأداة التأكيد؛ لأننا لم نكن منكرين لهذه الحقيقة حتى يؤكد لنا، وعلى طريقة ما يقوله الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أبلغ الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

الخبر الذي يأتي ابتداءً لا يحتاج إلى تأكيد. نعم إذا كان عنده هوى آخر، يريد أن يميل قلبه نحو هوى آخر فلا بد أن يأتي بمزيل للهوى الأول. وهنا إذا كنا جاهلين بهذا لا نحتاج إلى تأكيد.

³ الحجر 26

⁴ المؤمنون 12

⁵ الحج 4، إيا أيها الناس إن كنتم في ريب من النعب فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبألوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج}

وإن كنا من العالمين فلا نحتاج إلى أن نخاطب، فضلاً عن التأكيد، والبشر يعرف بجميع أطيافه أنهم خلقوا من نطفة. فإذا ما هو السر في هذا التأكيد في الخبر؟

الجواب عن واضح؛ باعتبار أن التأكيد لا يقتصر فيه على الشخص المنكر، وإن شئت فقل: الإنكار على نحوين: إنكار الاعتقادي وإنكار عملي. كما في الآية المباركة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾⁶ فالنبي ﷺ لا ينكر بأنه ميت، وكذلك، ولكن يريد أن يقول: إنك أيها الإنسان تتصرف في هذه الدنيا تصرف الإنسان الخالد، فيوجد إنكار في مقام العمل ومقام التصرف.

هذه الآية المباركة مضمونها ليس مجرد خلق الإنسان من نطفة، بل مضمونها إسناد هذا الخلق إلى الله سبحانه وتعالى. وبالنسبة لإسناد الخلق إلى الله سبحانه وتعالى هناك من ينكر اعتقاداً، وهناك من ينكر عملاً، فيوجد من يؤمن بوجود خالق ولكن الناحية العملية ينكر ذلك. فهذه النعمة لا بد من تأكيدها له حتى يلتفت إلى نفسه.

الوقف الثالث: المقصود من قوله: ﴿نُطْفَةٌ أَمْشَاجٌ﴾ وهي كلمتان:

الكلمة الأولى: نطفة، وهي كلمة واضحة في العرف، وهذه الآية المباركة بقرينة حرف الجر ﴿مِنْ﴾ نُطْفَةٌ ﴿فَهِىَ﴾ تتكلم عن بدء الإنسان وعن منشأه ومادته، وأن هذا الإنسان أنشئ من نطفة.

هذه النطفة مأخوذة في اللغة العربية من الكلمة الثلاثية "النون والطاء والفاء" نطف، هذه أصلها المتناسب مع ما نحن فيه يرجع إلى الماء، الماء الصافي، وفي بعض كلمات اللغويين ما يدل على قلته، ثم استعيرت هذه الكلمة وأصبحت تطلق على ماء الحيوان الذكر، فيقال له: نطفة، فمبدؤك أيها الإنسان من هذه النطفة.

الكلمة الثانية: الأمشاج، وهي كلمة تدل على الاختلاط. وقع الكلام بين علماء التفسير في أن الاختلاط بين ماذا وماذا؟ من نطفة مختلطة، فذهب جماعة إلى أنها مختلطة من الماء والدم؛ باعتبار أن النطفة عندما تنعقد يقف في العادة الحيض فتختلط في الداخل بدم الحيض. وجماعة قالوا أنها مختلطة ترجع إلى أمر يرتبط بالوراثة والسجايا والخصائص. وغير ذلك من الأقوال.